الفصل الثامن

رسالة العلماء الوطنيين فى العالم العربى أو نحو مدرسة وطنية عربية فى العلوم السلوكية(*)

مقدمـة

القضية التى نطرحها فى هذا الحديث قضية بالغة التركيب، وشديدة الخطر فى الوقت نفسه؛ فأما أنها على درجة عالية من التركيب فلأنها تربط بدءاً من عنوانها بين العلم والوطنية[1]، بينما نشأنا، وجرت ألسنتنا على الشهادة بأن العلم لا وطن له. وأما أن القضية شديدة الخطر فلأن مجموعة الوقائع والتصورات التى تدور فى فلكها ذات أثر بالغ فى مستقبل العلم وفى مستقبل الأوطان.

وما نزعمه أننا نجتاز الآن منعطفا تاريخيا يعتبر معلمًا من المعالم الكبرى فى مسار حياة هذه الأمة العربية[2]. وكونه كذلك فلأنه منعطف يمضى بالأمة بين حدثين من الأحداث الجسام: **أولهما** التهديد الخارجى المتزايد الذى يتعرض له الكيان المادى والهوية المعنوية للأمة، **وثانيهما** بزوغات اليقظة متعددة المواقع والأشكال. ومع ذلك ففى رأينا أن هذا المنعطف يمثل السياق الأمثل لأفضل عطاء يحدد وجهة الطريق إلى المستقبل. لأن مواجهة الأخطار يمكن أن تزيد من كفاءة تعبئة الطاقة، ولأن الاتصال ببزوغات اليقظة يمكن أن يبصّرنا بمواقع أقدامنا، حيث هى، وحيث ينبغى لها أن تكون.

(*) المجلة الاجتماعية القومية ـ سبتمبر ١٩٨٨.

(١) نستخدم مفهوم الوطنية هنا بالمعنى التقريرى لا التقويمى، ونعنى كون الباحث ينتمى إلى وطن بعينه.

(٢) ظهر فى هذا الصدد حديثا، مقال بعنوان: «النظام الإقليمى العربى: رؤية استراتيجية بين مؤشرات الصحوة ومظاهر الخلل»، نشره مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية (انظر جريدة «الأهرام» بتاريخ ١٠/٦/١٩٨٨).

سوف نعالج القضية التى نحن بصددها على النحو الآتى:

أولا : سنتحدث عن الدور الوطنى للعلماء، وعن المدرسة الوطنية فى العلم كحقيقة تاريخية فى مسار العلوم النفسية فى المجتمعات المتقدمة. وسوف نستخلص فى ختام هذا الحديث الخصائص (على المستوى التصورى) لماهية المدرسة العلمية، وللدور الوطنى للعلماء، مع الإيحاء بإمكان التعميم إلى العلوم الاجتماعية بوجه عام.

ثانيا : سوف نتجه إلى النظر فى أمر المجتمعات العربية المعاصرة، لنحدد حقيقة المعوّقات التى تعطل قيام العلماء الوطنيين بأدوارهم التى من شأنها أن تؤدى إلى ظهور مدارس وطنية فى العلوم النفسية والاجتماعية جميعا. وسوف نهتم بصورة خاصة بالمعوّقات المباشرة التى تقيم ركائزها داخل عالم العلماء.

ثالثا : سوف تكون خطوتنا التالية هى النظر فيما إذا كان من الممكن فعلا النجاة من وطأة هذه المعوّقات فى ظل الظروف الراهنة لمجتمعاتنا العربية بوصفها مجتمعات نامية.

رابعا : سوف ننظر، ختاما، فى وجه الضرورة التى تحتم قيام العلماء الوطنيين بأدوارهم الواجبة، والحاجة إلى أن يكونوا متنبهين لهذه الضرورة، ومتقبلين لمقتضياتها.

معنى المدرسة الوطنية فى العلم :

نبدأ بأن نسرد عددا من الوقائع فى تاريخ نشوء العلوم النفسية فى القرن التاسع عشر، ومستهل القرن العشرين. فمن خلال التأمل فى دلالة هذه الوقائع يتضح المعنى الذى نقصده بمفهوم المدرسة الوطنية فى العلم، أو دور العلماء الوطنيين.

يرتبط تاريخ نشوء علم النفس (كعلم تجريبى) بجهود عدد من العلماء الألمان، فى بداية الثلث الثانى من القرن التاسع عشر. ويتصدر قائمة الأسماء الكبرى فى هذا الصدد: فيبر E.H. Weber، وفخنر G.T. Fechner، ويوهانز مولر

J. Muller، وهلمهولتز H.L. Helmholtz، وإبنجهاوس H. Ebbinghaus، وفونت W. Wundt. وقد بدأ هؤلاء جميعًا من داخل معامل الفيزيولوجيا فى ألمانيا[١]، ثم شقوا طريقهم خطوة بعد خطوة نحو إقامة علم النفس، بادئين بدراسة الإحساس[٢]، ومنتهين بدراسة ظواهر على درجة عالية من التعقيد، كالذاكرة[٣] والعمليات العقلية، وبإقامة أول معمل لعلم النفس كعلم قائم بذاته، فى ليبزج، سنة ١٨٧٩؛ ويقترن هذا الحدث الخطير باسم فونت.

وشأن معظم الجهود الإبداعية تجرى فى بدايتها على سبيل المحاكاة كذلك كانت إبداعات هؤلاء الرواد الأوائل تقتدى بنموذج الفيزيولوجيا؛ فالتركيز فى المعمل على الفرد، والسبيل إلى التثبت من صحة[٤] المعلومة وقابليتها للتعميم[٥] هو استعادة[٦] الظاهرة أو المشاهدة عن طريق التكرار[٧]. وجدير بالذكر أنهم أفلحوا فعلا، فى هذا الوقت المبكر من تاريخ العلم، فى استخلاص عدد من القوانين الأساسية للنشاط النفسى لاتزال لها مصداقيتها. من هذا القبيل قوانين السيكوفيزيقا (Guilford 1954, p. 20)، ومنحنى التذكر أو النسيان الذى توصل إليه إبنجهاوس.

فى هذا الوضع نترك مؤقتا، قصة النشأة الألمانية لعلم النفس كعلم تجريبى

---

(١) بدأ فيبر تدريس التشريح والفيزيولوجيا فى جامعة ليبزج سنة ١٨٢٠. وحوالى هذا الوقت بدأ فخنر فى ليبزج أيضا دراسة الطب وتخرج سنة ١٨٢٢، ثم عين فى جامعة ليبزج سنة ١٨٢٤ لتدريس علم الطبيعة (إذ كان كثير الترجمة فيه من الفرنسية)، لكن هذا لم يمنع من أن تكون معظم بحوثه التجريبية أجريت فى الفيزيولوجيا. أما يوهانز مولر فكان أول شخص فى العالم يعين فى منصب أستاذ علم الفيزيولوجيا، وكان ذلك فى جامعة برلين. وأما هلمهولتز فقد درس الطب فى أحد المعاهد الطبية فى برلين، وتخرج سنة ١٨٤٢. ومن خلال قراءاته وبحوثه فى الفيزيقا اقترب تدريجيا من التخصص فى الفيزيولوجيا، إلى أن عين أستاذا للفيزيولوجيا سنة ١٨٤٩ فى كونجزبرج (انظر E. Boring 1957).

(٢) انظر فى هذا الصدد دراسات مولر وهلمهولتز فى الإبصار. ودراسات مولر وبل C. Bell فى السمع. ودراسات فيبر فى اللمس.

(٣) فى هذا المجال كان الإسهام الرئيسى لإبنجهاوس. حوالى سنة ١٨٨٠.

(4) verifiability.
(5) generalizability.
(6) reproducility.
(7) replicability

معملى وننتقل إلى مشهد تاريخى آخر، وهو يروى قصة ثانية على اللحن الأساسى نفسه؛ قصة النشأة الإنجليزية لعلم النفس كعلم **تجريبى ميدانى**.

الشخصية الرئيسية فى هذه القصة هى شخصية العالم الإنجليزى فرانسيس جولتون F. Galton. وقد ظهرت إسهاماته الرئيسية بدءاً من ستينيات القرن التاسع عشر، وتمثل علمه النموذجى (أو القدوة التى حاول أن يحاكيها) فى البيولوجيا. ومن ثم فقد احتلت مفاهيم الوراثة والاكتساب والفروق الفردية مكانة مركزية فى تفكيره[١]. وكانت هذه المفاهيم شائعة فى ذلك الوقت فى دوائر العلماء المتخصصين، وكذلك بين عامة المثقفين فى انجلترا نتيجة للاهتمام بنظريات التطور، وبوجه أخص نتيجة لقيام النظرية داروينية. وكان السبيل الرئيسى أما جولتون لتقنين مشاهداته واستنتاجاته هو الاستعانة بمفاهيم الإحصاء. وفى هذا السبيل استعار مفهوم المنحنى الاعتدالى[٢]، وبدأ هو نفسه الخطوات الأولى نحو ابتكار أسلوب لحساب الارتباط[٣]، وهى الخطوات التى توّجت فيما بعد بالتعاون بينه وبين كارل بيرسون K. Pearson الذى أضاف فى هذا المضمار لمسات الرياضى المحترف، فوضع الصيغة الرياضية لمعامل الارتباط[٤].

---

(١) نشر جولتون أول كتاب لفت الأنظار إليه سنة ١٨٦٩، وهو كتاب «العبقرية الوراثية»، فكان ذلك بعد ظهور كتاب «أصل الأنواع» لتشارلز دارون C. Darwin بعشر سنوات. ومع أن جولتون اهتم كذلك بالدراسة التجريبية للتداعى association، وللصور الذهنية، ومع أن معمل فونت تبنى أساليبه التجريبية فى هذا الصدد، مع ذلك فإن زاوية النظر التى ظلت تميز جولتون هى زاوية الباحث المتلمذ على نموذج البيولوجيا، الذى يهتم بالفروق بين الأفراد. (Murphy 1938, p. 123).

(2) normal curve.

(3) correlation.

(٤) وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين كان التعاون قد توثق بصورة ملحوظة بين جولتون وبيرسون، وانضم إليهما ولدون W.F.R. Weldon ليؤسسوا معًا مجلة بيوميتريكا Biometrika، سنة ١٩٠١، وهدفها ابتكار الأساليب الرياضية والإحصائية المناسبة لبحوث البيولوجيا وعلم النفس. وفى السنة نفسها أسس كارل بيرسون معمله البيومترى فى جامعة لندن، وبلغ الحماس بكارل بيرسون لهذا المنحى فى دراسة الظواهر البيولوجية والسيكولوجية أنه عبّر فى وقت من الأوقات عن اعتقاده بأن فى قدرة الإحصاء والرياضة الخروج بالاستنتاجات الصحيحة حتى ولو كانت المشاهدات خطأ أو مشوهة. وهو رأى لقى النقد المناسب فيما بعد على أيدى رياضيين وإحصائيين كانوا أكثر حرصا ومحافظة، وعلى رأس هؤلاء أودنى يول G. Udny Yule.

وحدث بعد ذلك مزيد من التقدم على نفس النهج، نهج التناول الإحصائى لظواهر النشاط النفسى، وكان هذا من خلال جهود جيمس ماكين كاتل J.M. Cattell فى الاختبارات العقلية البسيطة، وخطوات سبيرمان C. Spearman فى دراسة الذكاء، وبدئه السير فى السبيل إلى اكتشاف طرق التحليل العاملى[1] وتوظيفها فى استشفاف النظام الأساسى للنشاط النفسى.

هكذا دخل علم النفس القرن العشرين على دربين، أو من خلال منحيين: ترجع أصول أحدهما إلى جهود العلماء الألمان أساسًا (وتتلمذهم على نموذج علم الفيزيولوجيا)، وترجع أصول الثانى إلى جهود العلماء الانجليز بوجه خاص (واقتدائهم بعلم البيولوجيا متمثلا فى نظرية التطور الداروينية بوجه خاص). وعلى مر الأعوام والعقود توزعت الجهود ولاتزال تتوزع فى مجالات علم النفس المختلفة بين هذين المنحيين، وارتفعت قامات ينتمى بعضها إلى المنحى الألمانى النشأة، من أمثال جان بياچيه J. Piaget، ومونتجومرى شابيرو M.B. Shapiro. وسكنر F.B. Skinner. وينتمى البعض الآخر إلى المنحى الإنجليزى النشأة، من أمثال ثرستون L.L. Thurstone وجيلفورد J.P. Guilford، وهانز أيزنك H. I. Eysenck وجدير بالذكر أن كثيرا من الجسور أقيمت بينهما، ولاتزال تقام جسور جديدة، لكن الفروق المميزة لكل منهما لاتزال واضحة.

فى هذا الموضوع يلزمنا أن ننبه إلى أن المعنى الذى نقصده هنا للدور التاريخى الذى قام به العلماء الألمان من ناحية والعلماء الإنجليز من ناحية أخرى يختلف كثيرا عن مفهوم المدرسة كما أشاعه روبرت وودورث R. Woodworth من خلال كتابه بعنوان «المدارس المعاصرة فى علم النفس» الذى ترجم إلى العربية وذاع بين قرائها منذ أواخر الأربعينيات من هذا القرن[2]. فما أشاعه وودورث معنى شديد الضيق، أما المعنى الذى نقصده نحن فأرحب من ذلك وأشد تركيبا، وهو أقرب إلى ما يطلق عليه توماس كون T. Kuhn، أحد فلاسفة العلم المعاصرين، مفهوم الـ paradigm، وهو «النهج» أو الصيغة العريضة التى تقدم مقاما مشتركا وراء

(1) factor analysis.

(٢) قام بالترجمة العربية فى مصر الدكتور كمال دسوقى، ونشرت ضمن سلسلة منشورات علم النفس التكاملى، عن دار المعارف سنة ١٩٤٩.

كَمٌّ ضخم من الدراسات المنشورة والجارية فى الميدان، وتوحى بما يمكن أن يضاف إليها من دراسات جديدة مع اهتمام خاص بتوضيح المعالم الرئيسية للإطار النظرى والمنهجى الذى سوف تنظم من خلاله هذه الدراسات[١].

وكذلك ينبغى لنا التنبيه إلى وجود خاصية هامة فى كل من المنحيين المذكورين (الألمانى النشأة والانجليزى المنشأ)، وهى أن كل منحى يحمل طابعا مميزًا لمبتكريه، طابع المناخ الحضارى أو الفكرى الذى كان سائدًا حولهم؛ ففى ألمانيا كانت هناك نهضة كبيرة فى الفيزيولوجيا فى أوائل القرن التاسع عشر[٢]، ومن وحى أحداث هذه النهضة، ووجهتها العامة، استلهم فيبر وإخوانه إشراقات فتوحاتهم[٣]. وفى إنجلترا كان هناك انشغال شديد بالبيولوجيا، ومن وحى هذا الانشغال استلهم جولتون مفاهيمه وتوجُّهه[٤].

---

(١) يعتبر توماس كون T.S. Kuhn واحدا من أهم فلاسفة العلم المعاصرين. وتقدم أفكاره حول «النهج» paradigm وطبيعة الثورات العلمية الكبرى كالثورة الكوبرنيكية، والثورة الأينشتاينية، منظورا هاما لفهم تاريخ العلم ودلالة الحركات والنظريات العلمية الكبرى.

ومع ذلك فما دمنا بصدد الحديث فى تاريخ العلم، ومادمنا نستحث القارئ على الفهم المتعمق لدلالة الحركات الكبرى فى تاريخ العلوم السلوكية، فلابد من التنبيه إلى أن ثمة مآخذ تؤخذ على أفكار كون مؤداها أن هذه الأفكار لاتعين على فهم بعض الأحداث الهامة فى تاريخ العلم مثل قيام نهجين علميين كبيرين فى فترة تاريخية واحدة دون أن يتمكن أحدهما من القضاء على الآخر أو استيعابه.

وبالتالى فربما كان من المفيد للقارئ الذى يهمه الاستزادة فى هذا المجال أن يوسع من دائرة اطلاعه لتشمل فلاسفة معاصرين آخرين كذلك من أمثال لاكيتوس I. Lakatos ولاودان L. Laudan. (انظر Gholson & Barker 1985).

(٢) لأسباب تاريخية معقدة بدأت معالم نهضة حقيقية فى علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) فى ألمانيا فى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا. وظهر فى ذلك الوقت اسم فون هالر A. von Haller فى مدينة جوتنجن، وأطلق عليه فيما بعد لقب أبو الفيزيولوجيا الحديثة، وقد نشر كتابا فى هذا العلم ظل لمدة ثلاثة أرباع القرن هو المرجع المعتمد عالميا. (Murphy 1938 p. 75) واستمر الأمر كذلك حتى أصدر يوهانز مولر J. Muller سنة ١٨٣٤ (فى ألمانيا كذلك) كتابه «عناصر الفيزيولوجيا» الذى حل محل كتاب هالر باعتباره المرجع العالمى المعتمد فى دوائر التخصص (المرجع السابق ص ٩٩).

(٣) تشير الروايات التاريخية الموثوق بها إلى أن فونت كان يعارض ويقاوم الاهتمام بموضوع «الفروق الفردية» فى معمله (Mc Reynolds 1987).

(٤) مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر نشر إرازموس دارون (جد تشارلز دارون) صيغة مبسطة لنظرية التطور معتمدة على مفهومى الوراثة والتكيف لمقتضيات البيئة. ويبدو أن لامارك =

على أن المثالين اللذين ضربناهما بالنشأتين الألمانية والإنجليزية مثالان بالغا الوزن والحجم. ولكن ثمة أمثلة أخرى أقل من ذلك وزنا وحجما، وإن كانت لهما نفس الدلالة التى تعنينا، وهى المشاركة الوطنية (أى ذات الطابع المتميز وطنيا) فى بناء العلم. ومن هذا القبيل الإسهام الذى قدمه العالم السوفيتى لوريا A.R. Luria[1] وهوالإسهام الذى تخلّق من خلاله إطار يضفى التكامل والمعنى على بحوث عدد من العلماء من أمثال جولد شتاين K. Goldstein، وتوبير H.L. Teuber، وهالستيد W.C. Halstead، ونعنى به إطار علم النفس العصبى. فى هذا الإسهام نشهد ملامح المنحى الذى تتوازن فيه المكوّنات المنهجية مع عناصر المضمون، كما نشهد آثار استلهام عناصر شائعة فى المناخ الفكرى الذى ساد حول لوريا فى سنوات تكوينه ومرحلة بدء عطائه العلمى داخل الاتحاد السوفييتى، هذه العناصر التى تدور فى معظمها فى محيط فيزيولوجيا الجهاز العصبى، وتضرب بجذورها عبر بافلوف I.P. Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٣٦) وستشنوف I.M. Sechenov (١٨٢٩-١٩٠٥)، نحو منتصف القرن التاسع عشر.

ومن هذا القبيل أيضا الإسهام الذى قدمه العالمان الأمريكيان لايتنر ويتمر L. Witmer، وشبرد فرانز S.I. Franz. تمثل إسهام ويتمر فى إنشاء أول عيادة نفسية لعلاج الأطفال المشكلين. وكان ذلك فى رحاب جامعة بنسلفانيا فى سنة ١٨٩٦. وكانت هذه هى الخطوة الأولى على الطريق نحو قيام علم النفس الإكلينيكى كعلم تطبيقى يستفاد فيه بتطبيق المعلومات العلمية التى تجمعت من خلال البحوث النفسية الأكاديمية، تطبيق هذه المعلومات فى ميدان الاضطرابات النفسية للأطفال

= J.B. de Lamarck فى فرنسا تأثر بهذه الصياغة فيما قدمه سنة ١٨٠٩ باسم «فلسفة الحيوان». ودار جدل مكثف فى دوائر علم البيولوجيا وخاصة فى فرنسا، وامتدت آثاره إلى إنجلترا. وفى الوقت نفسه بدأ تشارلز دارون (الحفيد) يأنس فى نفسه الاهتمام بالميدان، ونشر سلسلة من البحوث الجزئية فى هذا الصدد، وانتهى الأمر به إلى نشر كتابه الرئيسى «أصل الأنواع» سنة ١٨٥٩. (انظر Murphy 1938 ص ١١٦؛ وانظر كذلك Darwin, 1892).

(١) نشير فى هذا الصدد بوجه خاص إلى كتابه المترجم إلى الانجليزية بعنوان The working brain (Luria 1973).

لخدمة أغراض التشخيص والعلاج والتأهيل والوقاية (سويف ١٩٨٥؛ McRey-nolds, 1987).

وبعد خطوة ويتمر بسبع سنوات جاءت الخطوة التالية، قام بهاشبرد فرانز. فقد تولى العمل فى معمل مستشفى ماكلين لإجراء فحوص على المرضى الذهانيين من نزلاء المستشفى، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٣، ثم انتقل فى سنة ١٩٠٧ إلى العمل فى مستشفى، سانت إليزابيث للأمراض النفسية فى واشنطن. وكانت مهمته الأولى فى هذا الموقع أن يصمم أداة مقنَّنة للفحص النفسى الإكلينيكى لكى تُستخدم فى المستشفى، وتم له ذلك. وتم له نشر الأداة فى سنة ١٩١٢ (سويف ١٩٨٥).

هاتان الخطوتان من لايتنر ويتمر، وشبرد فرانز تمثلان إسهاما وطنيا من علماء النفس الأمريكيين، يتضح فيه الطابع المميّز للمناخ الحضارى والفكرى الذى أحاط بهما فى المجتمع الأمريكى. فكلاهما نشأ فى ظل مفهوم علم النفس كعلم تجريبى معملى، وهو المفهوم الذى أشاعه التيار الألمانى وبلوره معمل فونت فى ليبزج[1]. وفى الوقت نفسه نشأ كل منهما فى مناخ الاهتمام العلمى بالفروق الفردية وما لهذه الفروق من دلالات نفسية. وهو الجانب الذى صنعه جولتون وتلامذته. (Boring 1957, p. 532). وكلا الرجلين ويتمر وفرانز خطا خطواته المبكرة فى إطار الحضارة الأمريكية كما تشكَّلت فى أواخر القرن التاسع عشر

(١) جدير بالذكر فى هذا الصدد أن لايتنر ويتمر التحق بمعمل فونت حيث تلقى تدريباته المبكرة فى علم النفس التجريبى. وكانوا فى المعمل يكلفون الطلاب بإعداد رسالة صغيرة قبل التخرج، فكانت الرسالة التى أعدها ويتمر وأشرف عليها فونت نفسه تتناول موضوعا يدخل فى مجال السيكوفيزيقا كما تبلورت على يدى فخنر. وعندما عاد ويتمر إلى الولايات المتحدة (فى جامعة بنسلفانيا) قام بإجراء ونشر عدد من الدراسات التجريبية التى تدخل فى إطار السيكوفيزيقا.

ولكن كان من الواضح فى ذات الوقت أن موضوع «الفروق الفردية» يحتل ركنا معينا ضمن اهتمامات ويتمر. وقد تسرب إليه الاهتمام بهذا الموضوع من خلال عمله مع جيمس ماكين كاتل وتلمذته عليه. فقد عمل ويتمر مع هذا الأستاذ فى بنسلفانيا فى وقت مبكر من عمره (قبل أن يسافر [أى ويتمر] إلى أوروبا للدراسة مع فونت). ومعلوم أن كاتل الذى سبق ويتمر إلى التتلمذ على فونت كان قد عاد إلى أمريكا وهو يحمل فى نفسه اهتماما بالمنحيين، المنحى التجريبى المعملى، ومنحى الفروق الفردية.

وأوائل القرن العشرين، حيث الاهتمام أساسا بالفرد كما تبلور ذلك عند جون ديوى J. Dewey، وبالفلسفة البراجماسية[1] كما تبلورت أولا عند بيرس C.S. Peirce (١٨٣٩ - ١٩١٤) ثم ذاعت على يدى وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠). وكانت المحصّلة النهائية لهذه التيارات جميعا كما تمت معالجتها فى عقلى ويتمر وفرانز هى الاتجاه بالعلم الناشئ، علم النفس فى شبابه الباكر إلى ميدان التطبيق الإكلينيكى، على الفرد الطفل والراشد، وهو التطبيق الذى ظل حثيثا حتى بلغ أشُدَّه فى سنة ١٩٤٧[٢][٣].

هذه الأمثلة الأربعة المختارة من تاريخ العلوم النفسية، توضح بما لايدع مجالا للشك، الأدوار الوطنية التى قام بها مجموعات من العلماء الألمان والإنجليز والروس والأمريكيين. كما أنها توضح دون لبس حقيقة ما ينطوى عليه مفهوم الدور الوطنى هذا الذى نسميه أحيانا منحى أو نهجا. ومن ثم فكون الدور الوطنى للعلماء فى إقامة صرح علم معين حقيقة قائمة فى محيط العلم، هذا أمر لاشك فيه، نتبيَّنه إذا نظرنا بإمعان فى وقائع تاريخ العلم وفى السياق الاجتماعى

---

(1) pragmatism.

(٢) فى سنة ١٩٤٧ تم اعتراف جمعية علم النفس الأمريكية بعلم النفس الإكلينيكى كعلم له كيانه المتميز. فقد شكلت الجمعية فى مارس من تلك السنة لجنة تتكون من عدد من كبار علماء النفس برئاسة دافيد شاكاو D. Shakow. ونشرت هذه اللجنة تقريرا فى كيفية إعداد المتخصص فى علم النفس الإكلينيكى (سويف ١٩٨٥؛ Committee 1947).

(٣) ثمة مثال آخر لايقل أهمية عن المثال الخاص بنشأة علم النفس الإكلينيكى فى أمريكا، وهو ظروف النشأة المبكرة لعلم النفس الاجتماعى التجريبى. فالتجربة التى أجراها نورمان تريبليت N. Triplett سنة ١٨٩٧ تعتبر نقطة البداية فى قيام علم النفس الاجتماعى؛ وقد أجريت فى معمل علم النفس بجامعة إنديانا. وتدور حول التأثير الذى يتعرض له أداء الشخص الفرد إذا تم هذا الأداء فى حضور أشخاص آخرين يقومون بنفس الأداء. هذه التجربة، وما تقوم عليه من تصور محورى مؤداه الكشف عن مدى وكيفية تأثر سلوك الفرد بسلوك الآخرين حوله، كانت النموذج الملهمَ لبرنامج بحثى متكامل وضعه فلويد ألبورت فى أواخر الحرب العالمية الأولى ونشره سنة ١٩٢٤. (انظر سويف ١٩٧٥، ص ٢١٣-٢٢٤؛ وص ٢٦٩-٢٧٨. وانظر كذلك Pepitone 1981; Allport 1924). والمهم فى هذه النشأة هو تسرب الفلسفة الفردية فى صميم النسيج الأصلى للموقف الذى اتخذه هؤلاء العلماء الأمريكيون الأوائل موقفا اجتماعيا نموذجيا يستعاد فى المعمل لأغراض الدراسة.

سوف تزداد دلالة هذا المثال وضوحا أمام القارئ فى مواضع تالية من المقال الراهن.

الحضارى الذى اكتنف هذه الوقائع. لكن الحقيقة المهمة التى ينبغى لنا أن نحسن التعامل معها بالإضافة إلى ذلك هى أن قيام الدور الوطنى على هذا النحو لاينطوى على أى تناقض ولاتعارض مع عالمية العلم، أو عموميته، أو موضوعيته. فجوهر الإنجاز الذى قدمته الإنسانية فى تاريخ العلم إنما يتمثل فى المحاولة المستمرة للعبور بالإسهامات الفردية أو شبه الفردية من الخاص إلى العام، ومن الجزئى إلى الكلى، ومن الذاتى إلى الموضوعى. وهنا بالضبط تكمن القيمة الجليلة للمهام التى أنجزها العلماء الذين ذكرناهم وأولئك الذين نهجوا على نهجهم؛ فهم قدَّموا أعمالا تحمل فى ثناياها ملامح من صنع بيئتهم الاجتماعية الحضارية كما تشكلت فى لحظة تاريخية معينة، ثم استطاعت هذه الأعمال رغم هذه القسمات الخاصة أن تجتاز حدود المحلية والخصوصية والجزئية وتعبر لتصل إلى آفاق العالمية والعمومية والكلية.

ويمكن النظر إلى هذه العملية المعقدة، والتعمق فى محاولة فهمها إذا تناولناها من خلال إطار الدراسات الحديثة التى تندرج تحت عنوان «سوسيولوجية المعرفة»، وهو إطار يبدو أنه يكتشف نوعا من الحتمية بالغ التعقيد، يصدق على المعرفة فى أشكالها المختلفة، حتى ما كان منها فى قوالب علمية (Buss, 1975).

والخلاصة، أن ماهية الدور الوطنى للعلماء، كما تتحدد من خلال استقراء الأمثلة التى ضربناها إنما تتمثل فى: الإسهام فى كيان العلم الذى لا يتوقف عن النمو والارتقاء، الإسهام بقسط له وزن ملحوظ، وله قسمات مميَّزة بحيث يمكن الكشف عن جذورها الحضارية الاجتماعية، وله دوام راسخ، من خلال قدرة على النمو الذاتى، وعلى تخصيب المجهودات المغايرة، والالتحام معها فى نسيج متكامل.

العلم فى المجتمعات العربية المعاصرة :

نتنقل الآن إلى النقطة الرئيسية الثانية، وهى المنوطة بالنظر فى أمر المجتمعات العربية المعاصرة، بما فى ذلك مصر؛ لنحدّد حقيقة المعوّقات التى تعطل قيام

العلماء العرب بأدوارهم الوطنية فى مسيرة العلوم النفسية والاجتماعية. ونحن نركز الضوء هنا على المعوّقات التى تنشأ داخل مجال حياة العلماء ونشاطهم، والتى يمكن القول بدرجة عالية من الصدق بأنها معوّقات من صنعهم، وإن كنا لانستطيع أن نغفل تماما معوقات أخرى مفروضة عليهم من خارجهم.

فى المجتمعات العربية المعاصرة عدد محدود جدا من العلماء الذين يعنيهم مستقبل العلم الوطنى. العلماء أنفسهم عملة نادرة فى هذه المجتمعات (وفى المجتمعات النامية بوجه عام)، والذين يهتمون من بينهم بمستقبل العلم الوطنى نُدرة داخل النُّدرة. هذه حقيقة تشهد بها البحوث والمؤلفات المنشورة. هؤلاء العلماء الأندر من الندرة يستثمرون جزءا من طاقتهم المبدعة فى العمل العلمى، وينفقون الجزء الباقى (وهو القسط الأكبر غالبا) فى محاولات لاتنقطع للدفاع عن إسهامهم العلمى ضد شىء يشبه زحف الرمال المتحركة التى توشك أن تطمر ماقدموا. ومن ثم فإن الأمر الجدير بالنظر هنا هو تشخيص الداء، أى تحديد هوية الأخطار المحدقة بجهود هؤلاء العلماء.

يقدم الشكل (١) صورة هيكلية للقوى الفاعلة فى تشكيل البحوث السلوكية فى سياق المجتمع المصرى فى المرحلة التاريخية الحاضرة. ومركز الثقل فى هذه الصورة هو وجود حالة اللامحاسبة[1] كواقع معاش (رغم قيام بعض المظاهر التى توهم بغير ذلك). ولكى ندرك القيمة أو الخطر الحقيقى لتوفر شرط اللامحاسبة هذا نقصد إلى النظر المدقق فى هيكل عمليتى الإنتاج العلمى، وتلقّى أو استقبال هذا الإنتاج، وما يدور بين هاتين العمليتين من تفاعلات فى المجتمعات المتقدمة، ثم نعود إلى النظر فيما يحدث فى بلادنا النامية.

فى التجمعات العلمية كما تعمل فى البلاد المتقدمة (الجمعيات العلمية مثلا، ومراكز البحوث، والأقسام العلمية فى الجامعات، واللجان وحلقات الدراسة المنعقدة لأغراض موقوتة) يوجد بين المتخصصين رأى عام متيقظ وناقد. كما

(1) nonaccountability.

توجد تقاليد تضمن ظهور النقد، وتضمن كذلك ظهور الرد على النقد، وتضمن بالإضافة إلى هذا وذاك استمرار الحوار العلمى على مستوى بعيد عن الإسفاف[1]. ومن خلال هذا المنظور تبدو المؤسسة العلمية (كما استقرت فى الدول المتقدمة) بناءً يحمل بداخله «آليات المحاسبة الذاتية»، ومن خلال نشاط هذه الآليات تنطلق عمليات «التصحيح الذاتى» وكل ما يصحبها من إنضاج للفكر العلمى. وهو أمر لانجد له نظيرًا فى المؤسسة العلمية كما تقوم فى مجتمعاتنا العربية، ولا فى البلاد النامية بوجة عام[2]. ومن ثم فإن الأخطاء إذا بدأت تكون الفرصة مهيأة أمامها للاستمرار والنمو بصورة سرطانية.

والسؤال الوارد هنا سؤال بالغ التركيب؛ ومع ذلك يمكن تلخيصه وتبسيطه، دون إخلال بحقيقة مضمونه، على النحو الآتى: ماذا يحدث قبل مرحلة أو منطقة اللامحاسبة، وماذا يحدث بعدها؟ وليس المقصود بالقبل والبعد هنا أنهما ظرفا زمان فحسب، بل هما ينطويان كذلك على علاقة منطقية.

نركز النظر أولا على ما يحدث قبل اللامحاسبة؛ ثمة عمليات رئيسية ثلاث لابد من تسميتها بأسمائها الواقعية، هى: **التضليل والاستسهال** (بمعنى إيثار السهل من الأمور) **والتآكل أو الذبول.**

ويقع **التضليل** على علمائنا فى مراحل حياتهم المختلفة، وتحت دعاوى متباينة، ومن مصادر متنوعة، وتستخدم فى بثه فى النفوس عمليات شتى تتسم غالبا بأنها مرهفة ونفَّاذة، أهمها **التشكيك، وترديد شعارات مريبة، والتشتيت.** أما التشكيك فينصب أساسًا على قيمة مواصلة العمل البحثى فى الطريق الذى يسير

(١) يستطيع القارئ أن يرجع إلى أية دورية من دوريات التخصص فى فروع علم النفس المختلفة، التى تصدرها جمعية علم النفس البريطانية، أو الجمعية الأمريكية، وسيجد فيها أمثلة لاحصر لها على هذه الحقيقة.

(٢) أتيح للكاتب، من خلال نشاطاته العلمية الدولية، وخاصة من خلال العضوية فى اللجنة الدائمة لخبراء بحوث تعاطى المخدرات بهيئة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة، أن يتصل بعدد من العلماء فى بعض الدول النامية مثل الهند وباكستان ونيجيريا والسنغال وماليزيا وتايلاند والبرازيل وكينيا وموريشيوس وزامبيا.

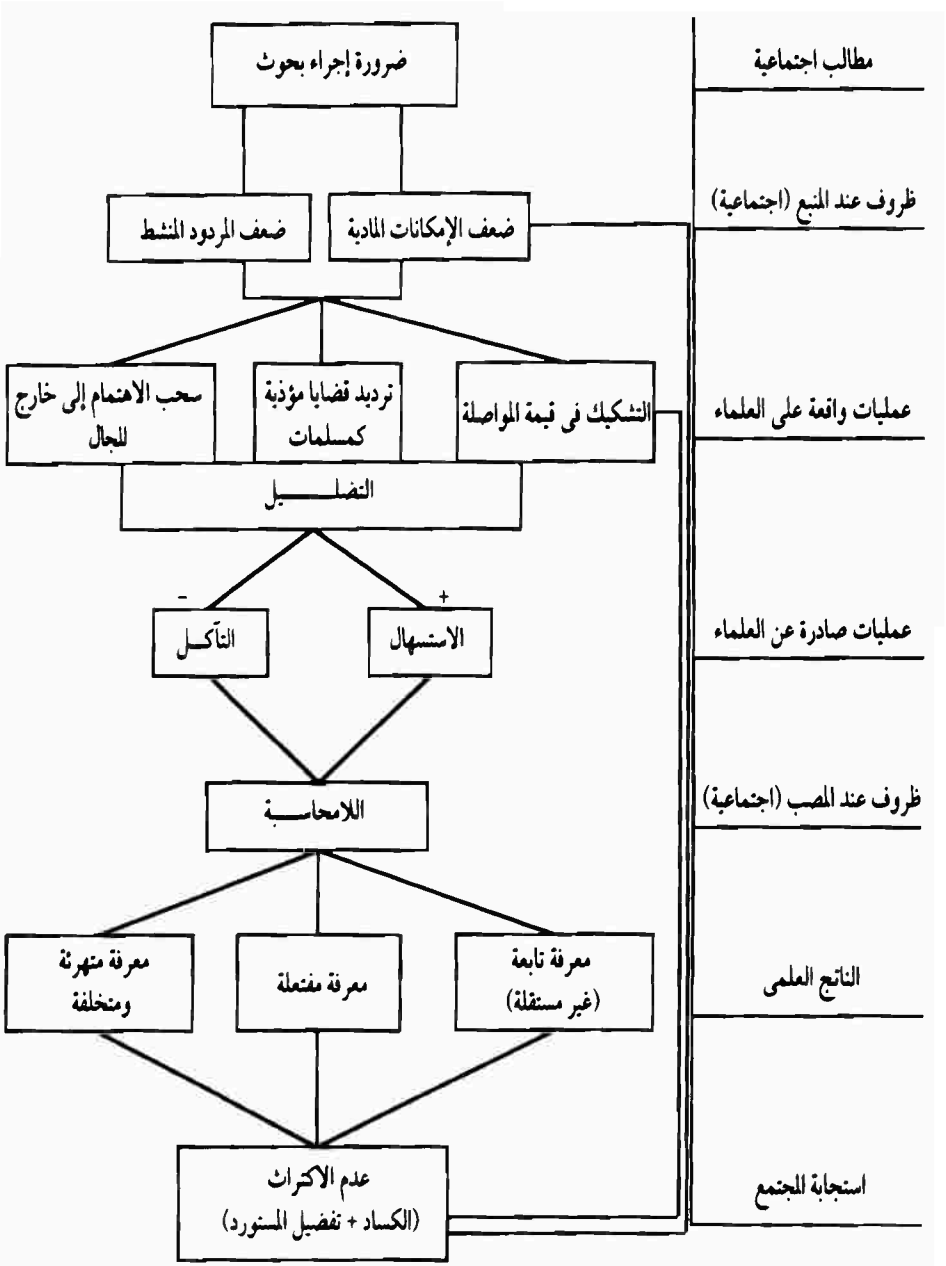

الشكل (١) القوى الفاعلة فى تشكيل البحوث السلوكية فى سياق المجتمع المصرى

فيه الباحث (إذا كان من أصحاب المشروعات البحثية)، سواء فى ذلك قيمة النقطة البحثية ذاتها، أو مجال البحث، أو العمل البحثى فى حد ذاته وأخذه مأخذ الجد. وأما ترديد الشعارات المريبة فيكون طرحها كأنما هى مسلَّمات ينبغى العمل بها دون مناقشتها؛ من هذا القبيل تكرار القول بأن علماء الدول النامية لايمكنهم (وأحيانا لايليق بهم) الاهتمام بإجراء البحوث الأساسية، وبالتالى فالأفضل لهم أن يتجهوا منذ البداية (توفيرا لجهد محكوم عليه بالضياع) إلى العناية بالبحوث التطبيقية. ثم هناك عمليات التشتيت وتكون عادة بسحب اهتمام الباحث من مجال اختاره لنفسه، وإغرائه بالسير فى طرق أخرى تختلف نوعيتها واتجاهاتها باختلاف مصادر الإغراء.

وتفعل هذه العمليات، أعنى التشكيك، وترديد الشعارات المريبة، والتشتيت، تفعل أفاعيلها التضليلية بدرجات متفاوته من الكفاءة بناءً على ما يصاحبها من عناصر وما يكتنفها من ظروف. وكثيرا ما تكون المصادر الممارسة لهذه العمليات، أو المشجعة عليها، مصادر أجنبية، وكثيرا ما يستعان فى هذا السبيل بالإغراءات المادية والمعنوية.

ويستجيب الكثير من علمائنا لحملات التضليل بخطوات تتبلور فى عمليتين رئيسيتين، هما: الاستسهال من ناحية، وترك أنفسهم نهبا لتآكل المعلومات والمهارات من ناحية أخرى. وتتم هاتان العمليتان، الاستسهال والتآكل، بدفع وتيسير وتشجيع من بيئة تتسم بضعف الإمكانات المادية (مثل شح الإنفاق على المكتبات العامة، وعلى المؤتمرات العلمية الجادة، وعلى نشر الدوريات المتخصصة... إلخ)، والفقر الشديد فى المردود[1] المعنوى المنشّط.

ننتقل الآن إلى النظر فيما يحدث بعد منطقة اللامحاسبة؛ والسؤال المثار هنا هو: أية نوعية من المعرفة يقدمها، أو يمكن أن يقدمها، باحثون يؤثر فيهم التضليل، ويعتمدون على الاستسهال. ويستسلمون لتآكل المعلومات والمهارات؟

(1) feedback.

والإجابة أنهم يقدّمون معرفة لايعتدُّ بها؛ فهى إما معرفة تابعة[1] تعوزها الأصالة، أى تعوزها الجذور التى تبرر شرعية انتمائها إلى ماضى اهتمامات الباحث العلمية.

(١) من أوضح النماذج على المعرفة التابعة أن يكون الجهد البحثى للباحث الوطنى جزءًا من مشروع بحثى أجنبى (فكرًا وتمويلا). وبالتالى يكون دور الباحث الوطنى فى المشروع محدَّدًا له فى كثير من تفصيلاته، بدءًا من هدف البحث، إلى التصميم البحثى، إلى الأدوات التى تستخدم فى جمع البيانات اللازمة، إلى التحليلات الرياضية أو الإحصائية التى يتم إجراؤها إلى الاستنتاجات التى تُرتب على هذه التحليلات، فليس للباحث الوطنى أى اختيار فى القرارات المتعلقة بهذه العناصر جميعا. بل إن كثيرا من الجهات الأجنبية تصر فى معظم الأحيان على أن ترسل إليها البيانات المجمَّعة محليًا فى صورتها الخام ليتم تحليلها فى البلد الأجنبى حيث نشأ المشروع أصلا وترفض هذه الجهات أن يتم تحليل البيانات محليا بدعوى أن هذه الخطوة تتم عندها بيسر وانضباط مضمونين ضمانا لاشك فيه. وفى نهاية الأمر يكافأ الباحث الوطنى بنشر اسمه مع مجموعة من الباحثين الأجانب على ورقة منشورة فى الخارج (وربما كوفئ كذلك مكافأة مالية غالبا ما تكون محدودة).

وجدير بالذكر أن جهات متعددة فى العالم أصبحت متنبهة لهذا الموضوع الذى ينطوى فى جوهره على علاقة غير متكافئة بين باحثين فى بعض دول العالم الثالث وباحثين آخرين فى بعض دول العالم الأول. وفى هذا الصدد تحدث نورمان سارتوريوس N. Sartorius باسم هيئة الصحة العالمية، فى بحث بعنوان «نقل التكنولوجيا لمكافحة تعاطى المخدرات: حلقات وصل أم أغلال؟» ومن بين ماقاله فى هذا الموضوع: «وفى ورقة تكشف عن بصيرة نفاذة وصف تاجومباى كاستللو، T. Castillo وهو عالم اجتماع فلبينى، وصف العلماء الأجانب وهم يجرون بحثا فى بلد غير بلدهم (بلد نام)، وصنفهم فى جماعات متباينة، باعتبارهم «مصدّرين للبيانات»، يقومون بالبحث «بأسلوب السفارى»، وينقلون معهم البيانات دون أن يتركوا وراءهم شيئا ذا قيمة، وأحيانا يسهمون بالملاليم إذ يستطيعون أن يجدوا بعض التمويل يعاونون به فى إنجاز دراسة توضع اسماؤهم عليها كمشاركين فى التأليف». ثم يستطرد سارتوريوس ليقول بلسانه شخصيا، ما يأتى: «والنتيجة فى كثير من الأحيان تصدير تكنيكات متقدمة إلى البلاد النامية، مع اتجاه إلى الوصاية فيما يتعلق بالتخطيط، وعقد الاجتماعات، وتحليل البيانات ونشر النتائج. ولما كانت الوصاية تورث الاعتماد فإن الباحث فى البلد النامى لايلبث أن يصبح جامع بيانات أمين، يوضع اسمه على بعض ما ينشر عن تلك البحوث دون أن تكون له كلمة مسموعة فى اختيار الموضوع، أو إبراز بعض النقاط دون البعض الآخر، أو اختيار مكان النشر....». (Sartorius 1982).

كذلك تناولنا هذا الموضوع فى محاضرة ألقيناها بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٨٣ فى نادى أعضاء هيئة التدريس لجامعة القاهرة، بعنوان: «المناخ الاجتماعى السائد حول البحث العلمى فى مصر» (سويف ١٩٨٣).

كما أثير هذا الموضوع من زوايا متعددة، على صفحات الجرائد المصرية، وخاصة مجلة «الأهرام الاقتصادى» الأسبوعية فى خلال سنة ١٩٨٢.

وإما معرفة مفتعلة[1]، وإما معرفة متهرّئة[2]، أى مليئة بالثغرات فى المنهج وفى الشكل وفى المضمون، والمحصّلة لهذا الإنتاج أنه لا يحرّك ساكنا، ولايثير شهية سواء عند المنتج أو عند المتلقى. والنتيجة كساد لهذا الإنتاج المحلى الذى لايحوز ثقة صاحبه ولاثقة زملائه الوطنيين، والنتيجة الأخيرة تفضيل للبضاعة المستوردة. ويترتب على ذلك مردود يدعّم فقر البيئة المحيطة فى إمكاناتها المادية، وفى مردودها المعنوى، وتكتمل بذلك دائرة مفرغة لها قصورها الذاتى الذى يحفظ عليها استمرار دورانها بصورة آلية.

هذه الصورة نقدمها للقارئ لنجيب على سؤالنا الرئيسى الثانى فى هذا المقال، وهو السؤال الذى يدور حول المعوّقات التى تعطّل قيام العلماء العرب بأدوارهم الوطنية فى مسيرة العلوم النفسية والاجتماعية. والصورة بهذا الرسم تستوجب منا تعليقين قبل أن نتركها إلى سؤالنا الرئيسى الثالث.

التعليق الأول أنها صورة تحمل مرارة الصدق الذى تستدعيه مواجهة النفس فى لحظة تاريخية ما. ولا أظن أن القارئ يختلف معنا فى الحكم بقتامة هذه الصورة، لكن كونها قاتمة لا يعنى أنها زائفة أو غير واقعية. وليس أوجب للصدق

---

(١) المقصود بالمعرفة المفتعلة أنها معرفة تقدم فى شكل دراسة أو بحث يدور حول مشكلة أو أداة لاصلة لها نظريا ولاتطبيقيا بخضم الاهتمامات السائدة لدى الباحثين الوطنيين ولاتصدر من وحى واقعهم الاجتماعى الأكاديمى. كما أنها لاتنبىء بخصوبة بحثية للمستقبل القريب. وغالبا ما تكون شديدة الجزئية، أو مستمدة مباشرة من قراءة لمرجع أجنبى (دون أن تصدق عليها بقية عناصر التبعية التى ذكرناها فى الهامش السابق).

(٢) تتمثل المعرفة المتهرئة فى عدد كبير من البحوث النظرية والميدانية المنشورة. ويبدو التهرؤ واضحا فى الضعف المنهجى الشديد الذى يبدو فى كل خطوة من خطوات البحث، بدءا من صياغة الفروض، أو صياغة مشكلة البحث بأسئلتها الفرعية، إلى إجراءات جمع البيانات أو المشاهدات، إلى القيام بخطوات التحليل الإحصائى فى أبسط صورها، سواءأكان الكاتب بصدد تقديم إحصاءات وصفية، أو إجراء عمليات تنتمى إلى الإحصاء الاستدلالى. ويبلغ التهرؤ أسوأ صوره فى العجز عن كتابة تقرير علمى يستوفى الشروط الواجبة التى ترشحه للنشر فى دورية معترف بها فى الدوائر العالمية.

وقد أتيح للكاتب بحكم عضويته فى اللجان العلمية الدائمة للترقية إلى الأستاذية المساعدة، والأستاذية، أن يطلع على قدر كبير من البحوث التى يصدق عليها وصف التهرؤ بكل مضامين هذا الوصف. ولولا المراعاة لاعتبارات قانونية وأدبية لايجوز تجاهلها لأمكن تقديم عشرات الأمثلة فى هذا الصدد.

والموضوعية فى مواجهة النفس من لحظة المنعطف التاريخى الذى تمر به الأمة العربية والذى افتتحت مقالى بذكره. وليس ألزم للنهوض، نهوض الفرد والأمة، من ضرورة البدء بمعرفة الحقيقة عن الذات وعن الموضوع.

والتعليق الثانى هو أننا لن نفهم هذه الصورة إلا بأن نضعها فى سياقها التاريخى؛ فلسنا هنا بصدد مجموعة من الظواهر الفردية التى ترجع إلى ضعف الإرادة أو هبوط الهمة أو سوء النية... إلى آخر هذه المفاهيم التى قد تصلح لوصف كل حالة على حدة ولكنها لاتصلح لإلقاء الضوء على تكاثر هذه الحالات وتزايدها بل وغَلَبتها بحيث تصبح هى القاعدة لا الاستثناء. إنما نحن بصدد تيار اجتماعى يرتبط فى نهاية المطاف بوضع تاريخى للمجتمعات العربية كجزء من العالم الثالث المحكوم له أو عليه بهامش ضيّق للحركة فى توفير عوامل الارتقاء المتسارع الذى يمكّنه ـ يوما ما ـ من الإسهام الخلاَّق فى تقدم الإنسانية على جميع الجبهات[1]. غير أن هذه الزاوية من زوايا النظر فى موضوعنا، رغم التسليم بأهميتها، لايتسع المقام لقول كلمة الحق فيها، ومن ثم فإننا نكتفى بالتنبيه إليها.

إمكانات العمل العلمى الجاد فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة :

الأسئلة المطروحة هنا يمكن تفصيلها على الوجه الآتى: هل يمكن للعلماء فى مجتمعاتنا العربية (وفى دول العالم الثالث) أن يتغلبوا (إلى حد ما) على قيود الهامش الضيق المفروضة على مجتمعاتهم؟ وهل يمكنهم، بالتالى، أن يبرأوا من زملة الأعراض (أو بعضها) التى أنتظمت حياتهم كقالب من قوالب التكيف المرضى مع ظروف معاكسة؟ وهل يقدَّر لهم أن يسهموا بدور وطنى فى المسيرة التاريخية للعلماء عامة؟ وكيف؟ الإجابة هنا هى الهدف الأساسى المقصود من المقال كله.

السؤال الرئيسى، والأسئلة الفرعية التى نطرحها هنا يجب أن تعامل معاملة

(١) فى سياق آخر، لكن له نفس الدلالة فيما يتعلق بمسألة ضيق هامش الحركة الحرة المتاحة لدول العالم الثالث، نشر الدكتور فوزى منصور مقالا ممتازا فى جريدة الأهرام بعنوان «التنمية المستقلة فى العالم الثالث» بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٩٨٨.

التنبؤات العلمية. والتنبؤات العلمية فى مجال السلوك البشرى تحمل فى ثناياها بذور صدقها أو كذبها، وذلك من خلال الصيغة التى يحسب بها وزن عامل الإرادة، إرادة الفعل أيًا كان، هذه الإرادة المصحوبة بالبصيرة بشروط الفعل ومقوّمات مجاله، والمصحوبة بتعبئة طاقة الخلق والابتكار. ولاسبيل إلى تجاهل قيمة هذه العوامل مهما دقّقنا فى تحديد هوية العوامل الأخرى وحساب أوزانها. هذا صحيح على مستوى العمل الفردى والعمل الجماعى، وصحيح فى مجالات العلم والفن والسياسة.

لننظر ماذا ينبغى عمله.

يعيب أعمال الكثيرين من باحثينا عيوب ثلاثة كبرى، كما ذكرنا من قبل، هى: الاتباعية، والافتعال، والتهرؤ. ونحن نرى أن عيب الاتباعية هو المفتاح إلى فهم سائر الجوانب السلبية. وبالتالى فمن وحيه سيكون تفكيرنا فى مفتاح النهوض مما آلت إليه أحوالنا.

تبدو الاتباعية فى عدد من النشاطات التى تصدر عن كثير من باحثينا. ذلك أن من أهم الصعوبات التى تعترض نشاطهم البحثى العثور على مشكلة تصلح لإجراء بحث يستنهض اهتمام صاحبه ويصل به إلى تقرير علمى يستحق النشر. وتبدو هذه العقبة فى أشد صورها حدّة فى حالة الشباب المتقدمين للدراسات العليا (فى مستويى الماچستير والدكتوراه). ولما كانت هذه المهمة، فى هذا الإطار، واجبا مشتركا بين الطالب والمشرف فلابد من شجاعة الاعتراف بأن العجز فى هذا الموقع عجزٌ مُعلَنْ من جانب الطالب وعجز ضمنى من جانب الأستاذ المشرف. ومع ذلك فإن هذه الصعوبة نفسها تبدو فى مجالات أخرى غير مجال الدراسات العليا فحسب. من هذا القبيل ما يحدث عندما يتقدم كثير من الزملاء للكتابة بهدف طلب الترقية فى سلم الوظائف الأكاديمية، أو بهدف المشاركة فى النشر العلمى، أو فى نشاط المؤتمرات.

ويظهر من النظر فى جذور هذه الصعوبة أن الكثيرين من الزملاء يحيون

حياتهم البحثية فى ظل مسلَّمة ضمنية يندر أن تتعرض لنور المناقشة العقلانية الصريحة. خلاصة هذه المسلَّمة كما استطعنا أن نستشفها من كثير من المظاهر أن المشكلات التى يواجهها الباحث فى حياته نوعان: نوع «بحثى» أى يصلح للبحث بطبيعته، ونوع «غير بحثى» أى لايصلح للبحث بطبيعته. ويكمل هذه المسلَّمة (المخبأة أو الخفية) قضية فرعية، مؤداها أن المشكلات الصالحة للبحث هى المشكلات المطروحة فى الكتب والدوريات. ومن ثم ينظر الكثيرون إلى الأعمال العلمية المنشورة كما لو كانت ثبتًا أو كتالوجًا بالمشكلات المعروضة أمام الباحثين القراء، وما عليهم إلا أن يأخذوا من تلك القوائم ما يبدو أن باستطاعتهم إعادة بحثه أو إعادة القول فيه. ومع أن هذا الوصف لحقيقة ما يجرى على الساحة يشف عن تناقض ملفت للنظر، لأن المفترض فى الباحث أن يجدّد ويبتكر فى مشكلات البحث، ومن زوايا النظر إليها، وفى أسلوب معالجتها... إلخ، لا أن يعيد تناول ماتم تناوله، مع ذلك فهذا الذى نصفه هو الحقيقة فى معظم ما يجرى حولنا فى صفوف الزملاء.

فى هذا الموضع بالضبط يمكن أن يتضح لنا ما ينبغى عمله كخطوة أولى. فى هذا الموضع يتبين أنه ينبغى للباحثين أن يبدأوا بأن يزيحوا من الطريق تلك المسلَّمة «المخَّبأة» التى أشرنا إليها، وأن يروّضوا النفس على العمل فى ظل مسلَّمة أخرى تظهر فى النور، خلاصتها أن كل جانب من جوانب السلوك قابل للبحث، وأن الاجتهاد يجب أن ينصرف إلى كيفية صياغة السؤال أو الأسئلة التى تتناول هذا الجانب فى ضوء ما هو متاح للباحث من أدوات ومفاهيم. وفى ضوء ما يتوقع الدارس أن يحصل عليه من عائد نظرى وتطبيقى، وفى ضوء ماتم بحثه فعلا، ومالم يُبحث بعد.

فى هذا الصدد نروى عن أحداث تاريخية وقعت فى الأعوام القليلة الماضية، لأننا قد نتعلم من هذه الأحداث. منذ عشرين سنة تقريبا، أى منذ أواخر الستينيات، وحتى الآن، تدور رحى معركة علمية بالغة الأهمية بين علماء النفس الأوروبيين وأقرانهم الأمريكيين؛ وهى تدور حول تحديد هوية فرع علم النفس

الاجتماعى. (Moghaddam 1987). تمثَّلت المعركة فى عدد من المجالات، نذكر منها ما يأتى:

(١) التصور النظرى لموضوعات تعتبر من الموضوعات الرئيسية فى علم النفس الاجتماعى، مثل موضوع الصراع[١] بين الأفراد، وكذلك بين الجماعات، وأيضا بين الأفراد والجماعات. وقاد هذا الجزء من المعركة على الجانب الأوروبى پلون M. Plon، وعلى الجانب الأمريكى نيميث C. Nemeth، حدث ذلك فى أوائل السبعينيات.

(٢) التصور النظرى لعملية «حل الصراعات»[٢]. قاد هذه المعركة على الجانب الأوروبى بيليج M. Billig، وعلى الجانب الأمريكى دويتشَ M. Deutsch. وحدث ذلك فى أوائل السبعينيات أيضا.

(٣) مع بدء الثمانينيات نشأ جسم لعلم النفس الاجتماعى الأوروبى يتميز عن جسم علم النفس الاجتماعى الأمريكى، فى كونه (أى الأوروبى) يعطى مزيدا من العناية المركَّزة لعدد من الموضوعات الكبرى، منها على سبيل المثال: «الصراع والتعاون»، والامتثال، والعوامل النفسية الاجتماعية التى تتدخل فى تشكيل التجربة المعملية فى بحوث علم النفس، والعوامل العرقية، والعلاقات بين الجماعات (بدلا من الاقتصار على العلاقات بين الأفراد داخل الجماعات)، وتأثير جماعات الأقلّيات على المجتمع العريض، والعلاقة بين علم النفس الاجتماعى والاقتصاد، وسيكولوجية البطالة، والأيديولوجية السياسية.

(٤) تبلورت للتعبير عن الدور الأوروبى فى هذه المعركة عدة تنظيمات وأدوات عملية، لإدارة المعركة العلمية إدارة عالية الكفاءة؛ نذكر من هذه التنظيمات والأدوات ما يأتى:

أ- الجمعية الأوروبية لعلم النفس الاجتماعى التجريبى؛ تأسست سنة ١٩٦٩.

---

(1) conflict.

(2) conflict resolution.

ب - المجلة الأوروبية لعلم النفس الاجتماعى؛ أنشئت سنة ١٩٧١ باسم European J. Soc. Psychol.

جـ- المجلدات الأوروبية فى علم النفس الاجتماعى، بدأت سنة ١٩٧١ باسم. European Monographs in Soc Psychol.

د- المجلة البريطانية لعلم النفس الاجتماعى والإكلينيكى؛ بدأت فى أوائل السبعينيات.

(٥) كان اتجاه علماء النفس الكنديين من بين التيارات القوية التى أسهمت فى دعم الدور الأوروبى المتزايد. وكان من أهم المجالات التى شاركوا فى تنشيط البحث فيها مجال اكتساب لغات جديدة وصيانتها، وفقدان اللغات المكتسبة وتآكلها. وكذلك مجال التعددية الحضارية كإطار للشخصية (نذكر فى هذا الصدد بحوث بيرى J.W. Berry فى سنة ١٩٧٧ وسنة ١٩٨٤؛ وبحوث لامبرت W.E. Lambert سنة ١٩٨٥؛ وبحوث سامودا R.J. Samuda وآخرين سنة ١٩٨٤.

نترك الآن تفاصيل الأحداث، وننظر فى الصورة إجمالا، لنستخلص عددا من الدروس، على النحو الآتى:

أولا : أننا هنا بصدد برهان تاريخى على أن قضية الدور الوطنى للعلماء قضية لازالت لها مصداقيتها، أى لازالت قائمة وحية. ومعنى ذلك أنه لايجوز الظن بأنها قامت فى الماضى فقط (فى القرن التاسع عشر) مرتبطة بالمراحل المبكرة فى نشأة العلم، أو مرتبطة بظروف الحياة السياسية الأوروبية والأمريكية فى القرن التاسع عشر فحسب. ونحن نزعم - على ضوءتحليلنا للنماذج التى أوردناها ولنماذج غيرها - أنها ستظل قائمة على طول مسافة المستقبل المنظور، على أقل تقدير.

ثانيا : أن عددا لايستهان به من العلماءالذين شاركوا ولايزالون يشاركون فى صنع هذه الصورة حركتهم وتحركهم بالفعل دوافع تتحلى بدرجة عالية من البصيرة السياسية القومية. ولكنهم أداروا معركتهم بأسلحة العلم، وبالتالى فقد أعادوا النظر بذكاء فى الدراسات المنشورة، ونفذوا إلى نقدها من خلال ثغرات

منهجية معترف بها بين العلماء، لامن خلال شعارات سياسية، وقدموا معالجات نظرية جديدة، وصلت أحيانا إلى حد الكشف عن علاقات بين متغيرات لم يكشف عنها من قبل، وأحيانا أخرى إلى درجة صنع مفاهيم جديدة.

ثالثًا : أن الجزء الأكبر من الدور القومى الذى أداه علماء أوروبا بدءًا من طرح مشكلات من واقع حياتهم فى صورتها الأوروبية (والكندية) المعاصرة، ولسبب مالم يسبق لعلماء العالم الأول (الأمريكيين) أن طرحوها، أو سبق للأمريكيين أن أشاروا إليها ولكن بصورة عابرة لا أكثر، فلما أتيح للأوروبيين والكنديين أن يسلطوا الضوء عليها جادت عليهم بأفكار ومفاهيم وطرق للمعالجة لم تكن واردة من قبل فى مخزون الثروة العلمية المتعارف عليه. ومن أمتع المشكلات التى عولجت ولايجوز أن ننساها فى هذا السياق مشكلة فقدان الشخص لغة ما بعد أن كان قد اكتسبها، ومشكلة التعددية الحضارية كإطار للشخصية، ومشكلة تأثير جماعات الأقلية فى المجتمع وليس العكس فحسب.

وفى رأينا أن هذا الذى حدث من علماء أوروبا وكندا، وفى مواجهة علماء الولايات المتحدة الأميريكية، يصلح (بناء على الدروس المستخلصة) لأن يكون مرشدا (ولا أقول نموذجا يُحتذى)، أو هاديا أمامنا على الطريق، نستلهمه الإجابة على سؤالنا الرئيسى: كيف نتصور لأنفسنا، نحن علماء العالم العربى خاصة، والعالم الثالث عامة، دورًا قوميا خلاَّقا، فى حركة التشييد والبناء العالمية للعلوم السلوكية الحديثة.

أتخيل الآن لو أن زملاء التخصص نظروا فى أمور أوطانهم ومواطنيهم، واستطاعوا أن يحددوا عددا من مشكلات السلوك التى تكتنف هؤلاء المواطنين، وأن ينظروا فى هذه المشكلات وقد تخلصوا هم أنفسهم من كثير من رسوم القوالب التى ألفوها من كثرة ما اعتادوا القراءة عنها أو من خلالها عند علماء أمريكا وأوروبا وكندا، لو أنهم استطاعوا ذلك لكانت هذه الخطوة هى البداية الإيجابية للقيام بالدور الوطنى فى المشاركة العلمية.

وفيما يلى أمثلة من مشكلات مناسبة للمقام نستمدها من واقع مجتمعنا المصرى:

أ ـ مجموع المشكلات السلوكية المترتبة على سوء التغذية فى مجتمع سواده الأعظم فقير جدا: أثر ذلك على نمو الأجنَّة فى الأرحام، وعلى الرضَّع، وعلى الصغار عموما فى تحديد أشكال ومواقيت بزوغ الوظائف النفسية العصبية، ونمو هذه الوظائف وارتقائها: من ذلك مثلا وظيفة مستوى التنبه العام[١]، والوظائف الحركية النفسية[٢] كتآزر اليد والعين، وتغيير وضع الجسم، والحبو، والجلوس، والوقوف، والمشى. ثم هناك وظيفة الكلام، وتكوين المفاهيم[٣]... الخ.

ب ـ مشكلة الآثار القريبة والبعيدة المترتبة على النماذج السلوكية التى تعرضها أجهزة الإعلام الحديثة عرضا مكثفا ومتواصلا؛ آثار هذه النماذج على تشكيل منظومة القيم الأساسية لدى النشء، وعلى تشكيل الشخصية لديهم، وعلى بنية العلاقات الإنسانية التى تكتنفهم.

جـ ـ بدء العمل المأجور فى سن مبكرة تصل أحيانا إلى سن السادسة أو السابعة من العمر، فى ظل ظروف اقتصادية واجتماعية قاسية غالبا[٤]، وذلك بالنسبة لشرائح عريضة من المجتمع. وأثر ذلك على نمو الشخصية وارتقائها فى جوانبها المختلفة.

د ـ تعاطى القنب أو الحشيش تعاطيا طويل المدى؛ يبدأ بعضه بعد سن العاشرة بقليل، ويبدأ معظمه فى سن السادسة عشرة. ويستمر البعض يمارسه لعشرات السنين[٥].

---

(1) level of arousal.

(2) psychomotor functions.

(3) concept formation.

(٤) يكثر الحديث فى الصحف والمجلات المصرية، من حين لآخر، عن تزايد نسب التسرب من التعليم الأساسى. ويربط الكتاب بوضوح بين هذه الظاهرة وبين تشغيل الصغار، خاصة فى ورش الحرفيين؛ يحدث ذلك رغم وجود النصوص القانونية التى تحرم هذا الفعل.

(٥) هذه إحدى المشكلات القليلة التى لقيت عناية علمية منظمة، إذ شكّلت للتوفر على دراستها «لجنة بحث تعاطى الحشيش فى مصر» تحت الرعاية الأدبية والمالية للمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية. بدأت العمل فى نوفمبر سنة ١٩٥٧، واستمرت فى عملها حتى نهاية سنة ١٩٧٤. وفى خلال هذه المدة صدرت عنها عدة بحوث منشورة باللغة العربية وباللغة الاجنبية، وقد نشر بعضها محليا ونشر البعض الآخر فى عدد من الدوريات الأوروبية والأمريكية المتخصصة. (انظر فى هذا الصدد: Soueif et al. 1980).

هـ ـ مجالات الصراع ومجالات التعاون ومجالات التسليم أو الاستسلام فى العلاقة بين الرجل والمرأة فى ظل التغيرات الاجتماعية الحضارية المتلاحقة، التى تنتاب المجتمع المصرى والمجتمعات العربية منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى.

و ـ العوامل النفسية الاجتماعية المرتبطة بأشكال التحولات الاقتصادية الكبرى فى المجتمع المصرى، وخاصة ما يتعلق منها بتغيرات القوة الشرائية للنقد، والتغيرات المتتابعة فى البنية الداخلية والخارجية لسوق العمل، والهجرات المؤقتة والهجرات الدائمة من الريف إلى المدينة، ومن مصر إلى الخارج.

ز ـ العوامل النفسية الاجتماعية المرتبطة بأشكال العمل السياسى فى المجتمع المصرى وفى المجتمعات العربية.

ح ـ مشكلة الزملات الرئيسية لأعراض وعلامات الأمراض النفسية، ومدى ملاءمة قوالب التشخيص السيكياترى المصنوعة فى دول العالمين الأول والثانى لما نجده فى مرضانا المحليين.

هذه عينة محدودة من مشكلات معظمها لصيق بواقع المجتمع المصرى المعاصر. ونستطيع أن نتوسم فى بعضها ملامح لمشكلات قائمة فى عدد من المجتمعات العربية، وإن كانت فى أغلب الظن تتخذ أبعادا متباينة فى المجتمعات المختلفة. وقد اعتمدنا فى اختيار مفردات هذه العينة التى قدمناها على قدر من البصيرة بظروف الحياة فى المجتمع. ومع ذلك فثمة طرق علمية دقيقة لحصر المشكلات النفسية الاجتماعية، أو المشكلات ذات الآثار النفسية الاجتماعية فى أى مجتمع مع تحديد الأوزان النسبية لكل منها؛ وهو ما فعله بعض الزملاء فيما سمى بـ «الترتيب القيمى لمشكلات المجتمع المصرى» وقد أُجرى ونشر بتكليف وتمويل من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى القاهرة (السيد وآخرون، ١٩٨٦).

على أن حصر المشكلات ذات الطابع الوطنى أو القومى بهذه الصورة ليس سوى خطوة تمهيدية فى الاتجاه السليم. وجدير بالذكر أن هذه المشكلات وأمثالها

ما هى إلا عناوين كبرى على مجالات عريضة، يتبينها المواطن العادى قبل العلماء. وهى بلغة العلماء تصلح مشروعات بحثية كبرى، لكنها لاتصلح بصورتها الراهنة كمسائل قابلة للبحث العلمى.

وهنا يبدأ العالم فى ممارسة حرفته، فيعيد صياغة المشكلة التى يقع عليه اختيارها بالصورة التى تجعلها قابلة للدرس الميدانى أو التجريبى، وللتنظير المناسب، ويحدد قائمة أولوياته فيما يتعلق بالتركيز على بعض الجوانب قبل البعض الآخر. ثم يمضى بعد ذلك فى الخطوات المعهودة للبحث العلمى.

ومن أصعب الأمور التى تواجه الباحث الذى يتصدى لمسئولية السير فى هذا الطريق أنه سيقف وجها لوجه، من حين لآخر، أمام بعض المواقف البحثية الشديدة الجدة، من حيث المضمون ومن حيث البنية؛ وبالتالى فلن يجد فى رصيد معلوماته ومهاراته التى حصّلها من قبل ما يسعفه كمثال يحاكى أو يحتذى؛ وفى هذه الحالة **يلزمه أن يشحذ قدراته الإبداعية ويوظّفها لاستخدام المناهج والطرق التى يعرفها استخداما ينطوى على قدر من المرونة دون الخروج على القيود الأساسية للانضباط الذى يضمن الموضوعية**. هذه النقطة من أعقد الأمور التى تواجه الباحث، لكنها تستحق كل ما يبذل فى سبيل إتقانها من عناء، لسبب رئيسى هو أنها من أهم العناصر التى يتكون منها جوهر الإسهام الوطنى الذى سوف يسهم به هذا العالم أو ذاك فى نمو العلم الذى يرتبط به كمجال للتخصص. وأمر ثان لايقل عن هذه النقطة صعوبة ولاخطرا؛ هو أنه سوف يواجه مشكلة مماثلة أثناء محاولاته التنظير؛ فقد لايجد القوالب النظرية المناسبة جاهزة فى متناوله لكى يتمكن ويمكّن الغير من الإمساك بالظاهرة وفحصها عن كثب. تصور علاقات جديدة، أو وضع مفاهيم مبتكرة، وفى هذه الحالة أيضا سيكون عليه أن يعمل على غير مثال سابق، وتلك مشقة أيضا، لكنها مشقة لا مفر منها تحيط بعنصر ثان يدخل فى صميم بنية الدور الوطنى الذى يمكن للعالم أن يقوم به فى التقدم بجبهة العلم الذى يحمل أمانته أمام تلامذته، وزملائه، ومواطنيه، وزملاء التخصص فى نطاق الأسرة العالمية.

نعود الآن إلى سؤالنا الذى أثرناه فى بداية هذا الجزء من الحديث: هل يمكن لعلمائنا فى مصر وفى الوطن العربى خاصة، وفى أوطان العالم الثالث عامة أن يحققوا شيئا فى هذا المضمار؟

كانت الأمثلة التى ضربناها من قبل فيما يخص علم النفس الاجتماعى مستمدة من نشاط العلماء فى العالم الثانى. وقد ذكرناها لتحطيم الوهم بأن القول الفصل فى علومنا السلوكية هو ما قال ويقول العلماء فى العالم الأول. ولكن يجئ الدور الآن على علماء العالم الثالث؛ فهل يمكنهم الإنجاز فى هذا المضمار رغم قيود الهامش الضيق المفروضة على حركتها وحركة مجتمعاتهم فى العالم المعاصر؟ الإجابة هنا ككل إجابة علمية، هى دائما مشروطة بشروط متعددة. ولكن فى نهاية المطاف الإجابة هنا ردّ بالإيجاب: نعم هذا ممكن. وثمة نماذج بدأت على الطريق، نماذج متواضعة، لكنها تقع فى الاتجاه السليم.

فيما يلى بضعة أمثلة :

فى سنة ١٩٨٦ عقد مؤتمر دولى فى اسطنبول حول البحوث الحضارية المقارنة فى علم النفس. وفى هذا المؤتمر تقدم كاجتشبازى C. Kâgitcibasi بنقد لمفهوم الفردية[١] والجماعية[٢] كما يقدم فى البحوث النفسية الصادرة عن علماء العالمين الأول والثانى. ويتلخص نقده لهذا المفهوم فيما يأتى: أن التصور الرئيسى السائد عند هؤلاء العلماء يقوم على أن الفردية والجماعية يقدمان كطرفى نقيض على بُعد متصل واحد. ومعنى ذلك أن المقياس الذى يُصنع على هذا الأساس يصور أى شخص وكأنه إما أن يكون مرتفعا على الفردية (ومعنى ذلك بالضرورة أن يكون منخفضا على الجماعية) أو أن يكون مرتفعا على الجماعية (ومعنى ذلك بالضرورة أن يكون منخفضا على الفردية). ويقول كاجتشبازى إن تصور الفردية فى مقابل الجماعية على هذا النحو أمر ينخرط فيه علماء الغرب مع تفضيل الطرف الخاص بالفردية، وعلماء الاتحاد السوفيتى مع تفضيل قطب الجماعية. لكن أحدا لم يفكر

(1) individualism.

(2) collectivism.

فى نموذج آخر لهذا التصور الأساسى لأبعاد الشخصية، بمقتضاه يبدو أنه لاتعارض بين الفردية والجماعية، وأن الفرد الواحد يمكن أن يكون على درجة عالية من الفردية والجماعية فى آن واحد. أو منخفضًا عليهما معًا. ومعنى ذلك أن يكون التصور الرياضى الأساسى لدينا فى هذا الصدد هو أننا أمام بعدين مستقلين (أى متعامدين)، أحدهما يمتد من أعلى درجات الفردية إلى أدناها، والثانى يمتد من أعلى درجات الجماعية إلى أدناها. أنظر الشكل رقم ٢ أ، ٢ب).

الفرديـــة الجماعيـــة

الشكل (٢أ). العلاقة بين الفردية والجماعية،
فى حدود النموذج التصورى السائد لدي علماء العالمين الأول والثانى

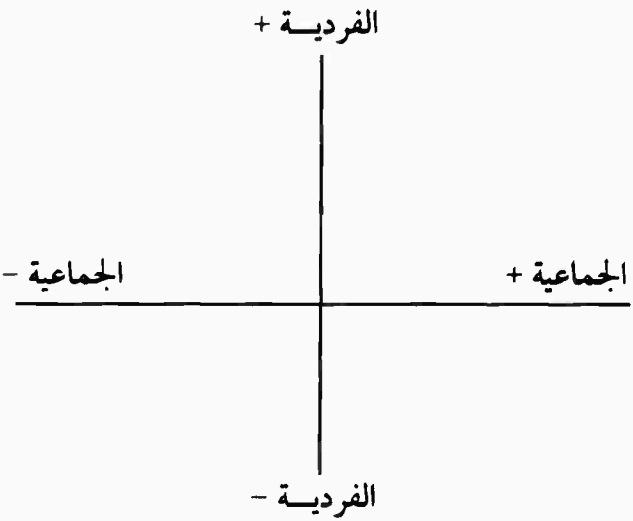

الشكل (٢ب). النموذج الذى يقترحه كاجتشبازى
لتصور العلاقة بين الفردية والجماعية

ويقول كاجتشبازى إن كثيرا من الحقائق التى تدور حول بناء الشخصية فى مجتمعاتنا فى العالم الثالث، يلائمها هذا التصور (٢ ب) أكثر مما يناسبها التصور الذى يقدمه علماء العالمين الأول والثانى.

ويبدو لنا من خلال الدراسات التى قمنا بها على النمو النفسى للطفل المصرى فى خلال السنوات الثلاث الأولى من العمر أن النموذج الذى يقترحه كاجتشبازى أقدر من النموذج السائد لدى كتّاب العالمين الأول والثانى على استيعاب حقائق الارتقاء النفسى الاجتماعى التى كشفنا عنها؛ فقد تبين لنا أن الطفل يقضى عامه الثانى فى نمو متسارع على محورى الفردية والاجتماعية معًا. وبالتالى يدخل أزمة نموٍّ أولى فى السنة الثالثة من العمر نتيجة لهذا النمو المركّب. كما تبين لنا أن هذا الطراز من النمو يعتبر واحدا من الحقائق الأساسية التى تميز النمو النفسى للطفل البشرى تمييزا حاسما إذا قورن بنمو الطفل فى عالم الحيوان. (سويف ١٩٥٤).

مثال آخر، دراسة أجريت فى أوغنده، ونشرت نتائجها سنة ١٩٧٦ حول الصراع أو التلاقى بين الهوية القبلية والهوية القومية، وما توحى به هذه الدراسة، ولاسيما إذا أعيد إجراؤها فى عدد من مجتمعات العالم الثالث، ما توحى به من فتوحات علمية على المستوى النظرى فى بحوث الشخصية. (Segall et al. 1976). جدير بالذكر أن هذا المثال ضربناه للإشارة إلى إمكان قيام دراسات أصيلة فى العالم الثالث، ونعنى بالأصالة هنا تناول موضوع ومجال جديدين لم يسبق تناولهما، بل ويتعذر تصور تناولهما فى دول العالمين الأول والثانى.

مثال ثالث، دراساتنا الميدانية فى مصر حول العوامل النفسية الاجتماعية المرتبطة بتعاطى القنّب أو الحشيش على مدى زمنى طويل (Soueif et al. 1980). فعندما بدأنا القيام بهذه الدراسة فى أكتوبر سنة ١٩٥٧ لم يكن علماء العالمين الأول والثانى يهتمون بهذا المجال، ولم نجد منشورا فى مجال البحوث النفسية ولا فى مجال البحوث الاجتماعية حينئذ إلا عددا محدودا جدا من البحوث المنضبطة منهجيا لايزيد عددها على عدد أصابع اليد الواحدة. وبالتالى فقد غلب على خطواتنا التى خطوناها فى إجراء سلسلة بحوثنا فى هذا الميدان أن نجريها على غير مثال سابق (Nahas 1973. P. 22).

وثمة أمثلة أخرى عديدة، مستقاة من مصر. ومن بعض الدول الأفريقية ومن أميريكا الجنوبية. (Moghaddam 1987).

هذه الأمثلة فى مجموعها تشهد بصدق إجابتنا بالإيجاب عن إمكان قيام بحوث علمية جادة على أيدى علماء من أبناء مجتمعات العالم الثالث. والمهم الآن أن نتنبه إلى عدد من الحقائق حول هذه الدراسات: **أولا**: أنها كانت دراسات علمية جادة بمعنى أنها التزمت بالقواعد الأساسية لمنهج البحث العلمى ولم تكن شعارات حماسية. **ثانيا**: أن عددا من هذه البحوث وجد طريقه إلى النشر فى دوريات التخصص المعترف بها عند أهل الاختصاص، والتى يخضع إمكان النشر فيها لتحكيم على درجة عالية من الموضوعية والانضباط. **ثالثا**: أنها ذات نكهة وطنية متميزة، من حيث إنها مستثارة بدءا من النظر فى مشكلات سلوكية محلية. **رابعا**: أنها حتى فى هذه الفترة المبكرة من نموها بدأت تسهم فى إثراء بنية العلوم النفسية النامية على الصعيد العالمى بعدد من المعلومات والمفاهيم والأبنية النظرية الجديدة التى نرجح أنها لم تكن لتكتشف أو لتصاغ بدون جهود العلماء الذين أبدعوها بكل ما يكتنف عقولهم من خصائص اجتماعية حضارية متميزة من وحى ظروف الحياة فى أوطانهم. **خامسا**: أن إسهامها فى تنمية كل من مجالى المعلومات والمنهج قائم، وإن كان الإسهام فى المجال الأول يغلب عليه أن يكون أكبر منه فى المجال الثانى.

وجه الضرورة فى قيام العلماء الوطنيين بأدوارهم المرتقبة :

لماذا هو ضرورى أن يقوم العلماء الوطنيون بأدوارهم المرتقبة، كما فصَّلنا القول فيها فى الفقرات السابقة، ومن التقصير ألا يقوموا بهذه الأدوار؟ هذا هو سؤالنا الأخير فى هذا المقال.

إجابتنا فى هذا الموضع نصوغها على ضوء مقال خطير نشره كيفين كونوللّى Kevin Conolley أستاذ علم النفس فى جامعة شيفيلد الإنجليزية، فى أغسطس سنة ١٩٨٥، فى النشرة الرسمية لجمعية علم النفس البريطانية. وكان المقال بعنوان: «هل يمكن أن يكون هناك علم نفس نابع من العالم الثالث»؟

(Conolley 1985). وقد وردت فى المقال عناصر متعددة بالغة الخطورة، غير أننا سوف نركّز اهتمامنا فى أربعة فقط، هى:

أ ـ أن المقال دعوة صريحة لعلماء النفس البريطانيين إلى الاهتمام بإثراء علم النفس من خلال الدراسة المباشرة، والاختبار عن قرب، لأشكال الحياة والسلوك فى مجتمعات العالم الثالث. (ولاشك أن العالم العربى مشمول فى هذا العالم الثالث).

ب ـ أنه من الخطأ الانتظار حتى نُدعى (أى هو وزملاؤه العلماء البريطانيون) للقيام بهذه المهمة (سواء من أبناء تلك المجتمعات أو من قوى أخرى)، بل يجب أن نبادر نحن (العلماء البريطانيون) بالقيام بمهمتنا هذه.

جـ ـ أن لدى بريطانيا الآن فائضا من علماء النفس المؤهَّلين الذين يعانون من البطالة، ولذلك فالرحيل إلى مجتمعات العالم الثالث والعمل فيها يقدّم لهذا الفائض فرصة للعمل (ولبريطانيا، طبعا، فرصة لحل مشكلة البطالة فيها، فيما يتعلق بهذا النوع من المتخصصين).

د ـ يضرب الكاتب مثلا بثلاثة مجالات للعمل البحثى والتطبيقى يمكن أن يتجه العلماء البريطانيون النازحون، يمكن أن يتجهوا إلى الاهتمام بها فى مجتمعات العالم الثالث. هى ميدان نقل التكنولوجيا، وميدان الرعاية الصحية، وميدان تنظيم الأسرة.

إلى هنا وتنتهى النقاط الأربع. وأعتقد أننى فى غنى عن التعليق المفصل عليها من زاوية النظر التى تسيطر على هذا المقال. والتعقيب الأوحد الذى نلتزم بتقديمه فى هذا الموضع هو: أننا نمثل بالنسبة لعالم المعرفة المتخصصة كما يراه الكاتب منطقة فراغ يجب أن تُملأ (تماما كما يتحدث رجال السياسة بمصطلح الفراغ أو مناطق الفراغ)، ويجب أن يملأه زملاؤه العلماء البريطانيون سواء دعوناهم نحن أهل البلاد أم لم ندعهم. كما أن هذه المنطقة من العالم تقوم أمامه (وهو يحث زملاءه الانجليز على أن ينظروا إليها بمنظاره) باعتبارها مجالا حيويا لحل مشكلة البطالة بينهم. وغنى عن البيان أن هذا نوع من مد جسور الهيمنة والوصاية على

مجتمعات العالم الثالث، من خلال مؤسسات العالم، وبلسان العلماء. بعبارة أخرى نحن بصدد مظهر آخر من مظاهر الهيمنة يضاف إلى أشكال الهيمنة الاقتصادية والسياسية. وهذا بالضبط ما ألمح إليه موجادام وتايلور فى مقال نشر ردا على مقال كونوللى، فى عدد تال من النشرة الرسمية لجمعية علم النفس البريطانية (Moghaddam & Taylor 1986) إذ جاء فى هذا الرد مانصه: «إن نظرة كونوللى تعكس اتجاها استعماريا نحو مجتمعات العالم الثالث».

يجب ألا تتشتت عقولنا وطاقاتنا بالنظر إلى هذا الذى كتبه كونوللى (ويفكر فيه ويكتبه عشرات من أمثاله من علماء الغرب) من زاوية كونه سرا أو قبحا.. الخ، وأنه ما كان ينبغى له أن يصدر عن عالم أو أستاذ إلى آخر هذه الاعتبارات الأخلاقية، فتلك مسألة أخرى لها موضع آخر. ولا يعنى ذلك أن الجانب الأخلاقى فى هذا الموقف جانب تافه، ولكن يعنى أن مناقشته لايجوز أن تستحوذ علينا فى هذا المقام الذى نحن بصدده.

إنما الذى يلزمنا التركيز عليه الآن، وفى السياق الراهن، هو أن المعانى التى ينطوى عليها فكر كيفين كونوللى وأمثاله تجيب عن سؤالنا الذى طرحناه منذ قليل: لماذا هو ضرورى أن يقوم العلماء الوطنيون بأدوارهم المرتقبة، ومن التقصير ألا يقوموا بهذه الأدوار؟

لأن هذه الأدوار أمانة فى أعناقهم نحو مجتمعاتهم، إذا لم يقوموا بها سارع البعض إلى محاولة ملء الفراغ، لأغراض شتى، وبمبررات لا آخر لها. ولكن لا الأغراض ولا المبررات تقدم خيرا لمجتمعاتنا، بل ولا تقدم بديلا موضوعيا للعلم الذى يمكننا ويلزمنا أن نقدمه.

هذا هو واقع الحياة فى العالم المعاصر، بجوانبه الاجتماعية والسياسية، وهو إطار يحيط بنشاطنا العلمى، وينفذ إليه بضغوط خفية وملتوية، سواء تنبهنا إلى ذلك وأردناه أم لا.

ولكل ميدان أسلحته المناسبة له. وميدان العلم لايناسبه سوى أسلحة العلم. وفى هذا السياق يصبح إتقان استخدام سلاح العلم بأيدى العلماء أمرًا واجبا.

تلخيص :

يهدف هذا المقال إلى بيان أن بإمكان الباحثين المعاصرين فى العلوم السلوكية فى مصر (وفى العالم العربى) القيام بدور فعال بالإسهام الحقيقى فى تقدم العلوم النفسية والاجتماعية، وذلك على الرغم من الظروف المعاكسة التى يعيش فى ظلها هؤلاء الباحثون. وفى السبيل إلى معالجة هذه القضية بدأنا ببيان المقصود بالدور الوطنى أو المدرسة الوطنية فى العلم واستعنا فى ذلك بعدد من الأمثلة المعروفة فى تاريخ علم النفس التى يتمثل فى كل منها عنصر الدفع خطوة إلى الأمام فى تاريخ العالم كما يتمثل فيها ملمح متميز من ملامح السياق الاجتماعى الحضارى الذى كان يكتنف حياة صاحبه أو أصحابه. وبدا واضحا فى جميع هذه الأمثلة أن تأثرها وتلونها بالظروف الاجتماعية الحضارية التى أحاطت بصاحبها لم تحجب عنها الاعتراف العالمى بأنها إضافة موضوعية لحركة البناء فى العلوم السلوكية. وكان السؤال الذى فرض نفسه بعد ذلك هو ماذا عن خصائص النشاط العلمى للباحثين فى هذا المجال فى المجتمعات العربية المعاصرة، ما هى الصفات السلبية فى هذا النشاط التى تعوق أصحابه عن الإسهام المنشود. وأوضحنا أن محور الفساد فى أو الضعف فى هذا النشاط يتمثل فى غياب عنصر المحاسبة. وأن هذا العنصر بقيامه كمحور أساسى فى الصورة يشع تأثيرا مفسدا على كل ما يدخل فى عملية الإنتاج العلمى وما يخرج منها. فمن ناحية، تتعرض المدخلات للتضليل والاستسهال والتآكل، ومن ناحية أخرى يأتى الناتج فى صورة معرفة تابعة، أو مفتعلة، أو متهرئة، وفى ثنايا هذا التحليل لم نتجاهل أن موقف البحث العلمى فى مجمله (داخل مجتمعنا المصرى ومجتمعاتنا العربية المعاصرة) تغلفه عوامل واقعية تدعم فيه دورة الفساد هذه. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى القسم الثالث من هذا المقال وفيه عرضنا لإمكانات العمل الجاد فى مجال البحث العلمى السلوكى فى مجتمعاتنا العربية، وعلى ضوء ما حددناه فى الأقسام السابقة من عيوب كبرى تلمَّسنا الطريق إلى العمل الجاد. ولكى يكون حديثنا مقنعا وباعثا على الاجتهاد الفعلى بدلا من أن يبدو بالغ المثالية وبالتالى يصعب تصديقه

والحماس له حرصنا على أن نضرب أمثلة محددة من واقع معركة يعيشها علماء النفس الاجتماعيون الأوروبيون فى مواجهة علماء النفس الاجتماعيين الأمريكيين طوال العشرين سنة الأخيرة، وما أسفرت عنه هذه المعركة حتى الآن من إسهامات جديدة لم يقلل من موضوعيتها ولا من فرض الاعتراف العالمى بها كونها ذات لون حضارى مميز للحياة والفكر الأوروبيين. وختمنا هذا القسم بتسمية عدد من المشكلات والمجالات التى تواجهنا أو نعيش فى كنفها ولاتزال فى انتظار عقول علمية وطنية تصوغها كمشروعات بحثية يمكن الإسهام بها ومن خلالها فى مزيد من تقدم العلوم السلوكية على الصعيد العالمى. وفى القسم الرابع والأخير تحدثنا فى وجه الضرورة الداعية إلى اضطلاع العلماء الوطنيين بمهامهم المرتقبة، وكيف أن إدراك هذه الضرورة والاستجابة الفعالة لدعوتها تتطلب من الباحثين أن يكونوا على درجة عالية من التبصر بأمور علمهم وبأمور أخرى تحيط بعلمهم وبمجتمعاتهم تتفاعل فيها بصورة بالغة التعقد عوامل من واقع العلم والاجتماع والاقتصاد والسياسة.

المراجـع :

Allport, F.H. (1924) *Social psychology.* Cambridge Mass: The Riverside Pr., 1924.

Boring, E. (1957) *A history of experimental psychology,* New York: Appleton- Century- Croft, 2nd ed. 1957.

Buss, A. (1975) The emerging field of the sociology of psychological knowledge, *Amer Psychologist,* 1975, 30/10, 988-1002.

Committee on training in clinical psychology, Recommended graduate training program in clinical psychology, Report of the committee on training in clinical psychology of the American Psychological Association submitted at the Detroit Meeting of the American Psychological Association, September 9-13, 1947. *Amer. psychologist,* 1947. 539-558.

Conolly, K. (1985) Can there be a psychology for the third world, *Bulletin, British Psychological Society,* 38, 249-257.

Darwin, C. (1892) *The autobiogrphy of Charles Darwin and selected letters,* F. Darwin ed., New york: Dover Publications.

Gholson, B. & Barker, P. Kuhn, Lakatos and Laudan (1985) Applications in the history of physics and psycholigy, *Amer. Psychologist,* 40/7 755-769.

Luria, A.R. (1975) *The Working brain,* London: Allen Lane, Penguin .

McReynolds, P. (1987) Lightner Witmer: Little Known founder of clinical psychology, *Amer. Psychologist,* 42/9, 849-858.

Moghaddam, F.M. (1987) Psychology in the three worlds, *Amer. Psychologist,* 1987, 42/10, 912-920.

Moghaddam, F.M. & Taylor, D.M. (1986) The state of psychology in the third World: A response to Conolly. *Bulletin, British Psychological Society,* 39, 4-7.

Murphy, G. (1938) *A historical introduction to modern psychology,* London: Kegan Paul, Trench & Tribuner.

Nahas, G. (1973) *Marihuana: Deceptive weed* New York: Raven.

Pepitone, A. (1981) Lessons from the history of social psychology, *Amer. Psychologist,* 36/9, 972-985.

Sartorius, N. (1982) Transfer of technology to control substance abuse: Links or Chains? Paper submitted to the AMERSA- World Health International Conference, San Fransisco 15-19 Nov. (1976). (memeographed).

Segall, M.H., Doornbush, M. & Davies, C. (1976) *Political indentity: A case from Uganda,* Syracuse, N.Y.: Syracuse Univ., Maxwell School of Citizenship and Publis Affairs, (cited in Moghaddam, F.M. 1987).

Soueif, M.I., El- Sayed, A.M., Darweesh, Z.A. & Hannourah, M.A. (1980) *The Egyptian Study of chronic cannabis consumption*, Cairo: National Centre for Social and Criminologicl Research.

المراجع العربية :

السيد، ع. م.، درويش، ز. ع.، الخولى ح. م.، خليل، ن. ح (١٩٨٦) الترتيب القيمى لمشكلات المجتمع المصرى، القاهرة: المركز القومى للبحوث الاجتماعية و الجنائية.

سويف، م. (١٩٥٤) **الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى**، القاهرة: دار المعارف.

سويف، م. (١٩٧٥) **مقدمة لعلم النفس الاجتماعى**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة.

سويف، م. (١٩٨٥) علم النفس الإكلينيكى: تعريفه وتاريخه، **مرجع فى علم النفس الإكلينيكى**، إعداد مصطفى سويف وآخرين، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥، ٥-٥٠.